الوطن وإشكالية المتغير الحضاري

دراسة في القصيدة الاسلامية المغاربية المعاصرة

د. عمر بوقرورة
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة باتنة

ان الحديث عن الوطن في الشعر الإسلامي المعاصر يعني البحث عن المتغير الإيجابي الذي يهدف الشاعر من خلاله إلى إيجاد وطن بديل مغاير للوطن الحالي الذي تجرد في أحيان كثيرة من معاني السمو والعزة، ليتحول إلى خرائط ترسم على مساحات الأوراق، أو شعارات تنعش ذلك الحماس الإقليمي الذي تمارس من خلاله نخبة من الناس حقها في الحياة، بينما يحرم الشرفاء من هذا الوطن[1]:

أتأمل خارطة الوطن العربي
مشوهة هذي الخارطة العربية
مكتوب بحروف سوداء
لا يسمح بالتجوال عليها الا للغرباء
وأمر بكفي في حذر

1 من الشعر الإسلامي الحديث /ج1 / قصيدة مشاهد من عالم القهر/ مأمون فريز جرار/دار البشير/ط1 / عمان / الأردن / 1409هـ/ ص358

فوق الخارطة العربية

و أحس دمامل حقد في كل الأرجاء

وأرى أصناما بشرية

وشعوبا يقتلها الإعياء

هذه مقدمة للدخول الى الحديث عن الوطن العربي الإسلامي الذي يفترض فيه أن يكون المأوى و الملجأ لأبنائه، المؤسس للعز و القوة فيهم، ففي الستينيات من هذا القرن زعم الشعب العربي المسلم أن الأوطان و الأقاليم المحررة - و التي تحكمها قومية عربية مدعومة بنزعات إقليمية يمكن أن توصلهم إلى الهدف و تقربهم من الآمال التي تطلعوا إليها في زمن الثورات التحررية، اذ كان القوميون يدعون ملكية الحل الأمثل لكل القضايا العربية.لكن المشكلة تكمن في أن هذا النباء لم يحقق إلا التمزق، لم يؤسس إلا الهزيمة حين ضاع القدس و ضاعت معه أقاليم أخرى، وتأكد الكثيرمن الناس في البلاد العربية أن الشعار القومي أو الجهوي لا يكفي لإقناعهم بالنصر، فوقعت خيبة شبه عامة في وجدان الأمة، وولد إحساس قوي بالحزن والإغتراب.

و من خلال هذا الإحساس سيكون حديثنا عن الوطن، وسيصحبنا السؤال التالي الذي نتخذ من الإجابة عنه وسيلة لرصد المتغير الحضاري الذي حل بالوطن، وعلاقة الشاعر الإسلامي به، و السؤال هو : هل يصدر الشاعر الإسلامي في شعره عن وعي إقليمي قومي يجعل من مفهوم الوطن عنده هو هذه الأقاليم العربية المتناثرة المختلفة، أم أنه يصدر عن وعي إسلامي يجعل من الوطن عنده هوتلك الرقعة الجغرافية التي يجب أن تمتد امتداد الإسلام ؟

إن الإجابة تحيلنا الى مرجعيتين :

أ - مرجعية إقليمية أساسها بيئة الشاعر المؤيدة بخصوصيات قد لا توفرها

الأقاليم الأخرى، غير أن هذه المرجعية ستبقى محدودة في الظواهرالمادية المجسدة في طبيعة الوطن ، وفي جغرافيته، وحدود عاداته و تقاليده، ولا ترقى الى التأسيس للمكون الفكري و العقائدي الذي يحكم الوطن في علاقته بكل الأوطان، أو الأقاليم العربية الإسلامية التي يجب أن تشملها مرجعية عقائدية واحدة، أو هكذا يجب أن تكون .

ب- مرجعية إسلامية وهي التي ترتقي بالوطن إلى المستوى المعنوي حيث تجعل منه مفهوما واسعا يمتد امتداد العقيدة الإسلامية في هذه المعمورة، فالوطن هنا هو:« كل أرض حيثماكان موقعها و أيا كان جنس أهلها و لسانهم، يطبق فيها الإسلام شرعة ومنهاجا »[2] و معنى هذا أن جغرافية من الأرض يسكنها مجموعة من البشر لا يحكمهم شرع الله ولا تحترم فيهم عقيدة الإسلام لا تصلح أن تكون وطنا للمسلم، فالإسلام هو الأساس ، و العقيدة هي وطن المسلمين، وهي «قاعدة التجمع العضوي الحركي التي يقوم على أساسها وجود الأمة المسلمة»[3] والعقيدة هي الفاصل في الوطنية « اذ لا يرتبط المسلم بطين الوطن، بل بالعقيدة التي آمن بها و بوطنها »[4].

إن هاتين المرجعيتين نجدهما مجسدتين في القصيدة الإسلامية المغاربية، حيث لم يتنازل الشعراء عن الخصوصيات التي شكلتها البيئة الخاصة، لكنهم تساموا بها حين لم يستلبهم المكون الإقليمي القومي، فكان الوعي الإسلامي العقائدي الذي ظل موجها للبيئة الخاصة ، و مصاحبا لها إلى أن امتزجت بالوطن الأكبر(وطن العقيدة).

هذا هو المفهوم الذي وعاه الشاعر الإسلامي، والذي اتخذه مصدرا لهويته، إذ ظل مصاحبا لهذا المصدر، ملتصقا بوطنه الأكبر المؤيد بخصوصية الوطن الأصغرحاملا

2 المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي/ د.حسن الوراكلي/ ص 39.

3 في ظلال القرآن/ مج 3/ سيد قطب / ط11/ دار الشروق/بيروت/القاهرة/ 1405 هـ/ ص1561 .

4 الإسلام/ سعيد حوى/ جـ2 / مكتبة وهبة/ القاهرة/ 1397 هـ/ ص159 .

لقضية الأمة بأكملهافي وجدانه، و من شأن هذا المفهوم أن يكسب القصيدة الإسلامية لونا مميزا، فبات من النادر التشابه بين قصائد الشعراء الإسلاميين وقصائد الشعراء الآخرين من حولهم ، أولئك الذين نذروا شعرهم الوطني لإقليميات و نزعات عرقية، ولدت في ظل التخفف من الإسلام، وفي ظل القومية العربية.

و تأسيسا على ما سبق نلتقي بمجموعة من الشعراء الإسلاميين وهم يؤكدون هذا المفهوم المركب، فالغماري ينطلق من الوطن الجغرافي الضيق ليعانق الوطن العقائدي الواسع الذي يستمد جوهر وجوده من الإسلام ، و لذلك فهو يكشف في قصائده عن هذا الجوهر باستمرار، و يحاول أن يربطه بالإبداع .واذا كان أبو القاسم سعد الله لم يجد في ديوان الغماري(ألم و ثورة) سوى الجزائر ولبنان [5] فإن القارئ يمكنه أن يكتشف في دواوينه - بعد ذلك - عشرات الأقاليم الإسلامية التي تشكل وطن الغماري العام أو وطن الفكرة «يمتد بامتدادها، ويتقلص بتقلصها وضمورها، وهو الذي لا يرى في هذه الحدود المرسومة بين أجزاء العالم العربي و الإسلامي الا حدود وهمية »[6] وقد أكد محمد ناصر مفهوم الغماري هذا بقوله: «تشعر وأنت تقرأ شعره بأنه إنسان لا ينتمي الى أرض معينة ذات حدود جغرافية، وإنما هو يكون حيث يكون الإسلام، هو في القدس، و في الهند، وفي الفيليبين، وفي بخارى، و في الباكستان، يشعرك وأنت تتابعه في مواقفه بأنه يريد أن يتجاوزحدودا ذاتية بعينها »[7]. إن الغماري لا يفتتن كثيرا بذلك التأثيرالذي تحدثه الإقليمية، بل المهم عنده هو ذلك التماثل الكلي للوطن الذي تشكله بنية إسلامية، يجسدها وهو يخاطب محمد إقبال الباكستاني :[8]

5 أنظر:تجارب في الأدب و الرحلة/ د.أبو القاسم سعد الله/ المؤسسة الوطنية للكتاب/ الجزائر/1983 / ص 147 .

6 الغماري شاعر العقيدة الإسلامية/ د.شلتاغ عبود شراد/ مخطوط/ ص154 .

7 أسرار الغربة/ ط2 / المقدمة بقلم د. محمد ناصر/ ص14 .

8 نفسه/ ص89

إقبال.ياخطرات العشق ساريـة بانفحة من شميم الله تهدينا
إن باعد الجنس مابيني وبينكم لنا شريعتنا جنس يدانينـا
ليسقط البعد في لاهور مئذنتي وفي الجزائرتكبير المصلينا

كما يجسدها وهو يعلن موقفه الإسلامي الرافض الذي يصله بالمفكر الإسلامي الهندي أبي الكلام أزاد:[9]

نحـن الذيـن أبا الـكلا م برفضـهم سـكر الزمـان
وبجـرحهم خـضـرت درو ب واشـرأب بـهـا الأمـان
لـي مـن جهـادك شعلـة خـضـراء تمعـن لا تحـيد
إثـنان كـانـا فالزمـان هوى وبـوح الـورد عـيد
المـسلـمون ودينـهم وسـواهما زبـد وبـيد

إن الإسلام في الأبيات الشعرية السابقة هو الذي يتحكم في مفهوم الوطن، وهو الذي يحرك الشاعرداخل إطار جغرافي يمتد من لاهور إلى الجزائر ، ومن هنا نجد أن الغماري قد جذر لنفسه انتماء إسلاميا يضاف إلى هوية المكان، ولولا هذا الإنتماء لما حدث التواصل بين مئذنتين إحداهما بلاهور والأخرى بالجزائر. والإنتماء نفسه نجده لدى محمد ناصر:[10]

إن تدع مئذنة بحي على الجهاد تجيبها ألف لهن نداء
أبناؤك الثوار سيل هادر والمعتدون نفاية وغثاء
سيان حسنك فارسيا كان أم عربيا إن عقيدتي سمحاء

و بإمكاننا تقصي هذا المفهوم لدى شعراء المغرب الأقصى يتقدمهم حسن الأمراني الذي ينطلق من كلية الإسلام ليعلن عن وطن ممتد ، يتجاوز مفهوم الرقعة الضيقة التي تحدها الأسلاك الشائكة، و تطبع هويتها شهادة الميلاد حيث يمتد ليوحد بين

9 أسرار الغربة/ ط2 / المقدمة بقلم د. محمد ناصر/ ص 166.
10 في رحاب الله/ د/محمد ناصر/ ص8.

أبعد نقطتين في لحظة التوهج، فالفيليبين وإيريتيريا تفصل بينهما آلاف الأميال كما تقول كتب الجغرافيا ، و لكن في كتب الشعر تشكلان لحمة واحدة تجمع بينهما

لغة الدم، و صوت الأذان الذي يأبى أن يخمد رغم بشاعة المذابح. »[11].

إن هذا الوطن العقائدي تترجمه عناوين القصائد الآتية : «صلاة إلى القدس، صلاة إلى أرض الأفغان، صلاة إلى المغرب، بيروت الدم،قراءة مغربية في ديوان الشام الدموي ... »[12]

و المفهوم نفسه نجده لدى جواد العمراني الذي يخصص ديوانه (جغرافية الحلم التوحيدي) لهذا الوطن الإسلامي الكبير الذي يتمناه موحدا، قويا، عزيزا، ففيه نجد القصائد الآتية : «الأحلومة التونسية، الأحلومة النيلية، الأحلومة الإيريتيرية، الأحلومة القدسية، الشامية، العراقية، الإيرانية، التركية ... »[13] والحلم التوحيدي عنده مكتمل في دائرة بدايتها الجزائرونهايتها مراكش التي يتنازل من خلالها الشاعرعن الهوية المكانية لصالح الهوية الإسلامية:[14]

هذا قصيدي لو مراكش اكتشفت سر القصيد ماكان الحلم قد سرقا

مراكشي أنا لكن جنسيتـــي مراكشيتها التوحيد معتنقـــا

وتراهن أم سلمى على هذا الوطن العقائدي الكبيرالذي لن يتحقق إلا إذا زالت تلك الحدود الوهمية، و الحواجز المصطنعة التي أقامتها فلسفات غريبة عنالإسلام:[15]

وحين تكشط من الخرائط الحدود

تتفجر الأفراح أجاجا

و تنهار السدود تباعا

---

11 أسئلة الإبداع في الشعر المغربي المعاصر/ أحمد الأشهب/ الموقف/ ع9 / ص166 .

12 الزمان الجديد/ حسن الأمراني/ ص85 ،89 ، 91 ، 149 ، 143

13 جغرافية الحلم التوحيدي-/ جواد العمراني/ مخطوط/ ص04 ،05 ،06 ،07 . . .

14 نفسه/ جوادالعمراني/ ص20 .

15 لعبة اللانهاية/ أم سلمى/ ط1 / مطبعة الأمل/ المغرب/ 1985 / ص14 .

إن هذا الوطن العقائدي الكبير هو مبعث سعادة الشاعر الإسلامي، ومنبع فرحته الكبرى، لكن المشكلة تكمن في أن يضيق هذا المفهوم العقائدي، أو يصير دون معنى حين تزاحمه مفاهيم إقليمية مبنية على فلسفات لا علاقة لها بالإسلام، وهي المفاهيم التي تؤول بنا إلى صورتين للوطن: صورة الإيجابي، أو الغائب الذي سيبقى حلما، وصورة السلبي الحاضرة بكثافة، وهي الصورة التي تجسدها النصوص الشعرية من خلال موضوع الاغتراب الذي لولا السلبي ما كان. إن الوطن في هذه الحالة يصير خطرا على أبنائه فيجعلهم سقط متاع، و يشردهم ، ويحشرهم في زمر المنبوذين، بل و يتحول إلى حدائق للموت، و مزارع للدماء، وأماكن لهو للآبقين، وذلك معناه الضياع و القطيعة بين الشاعر و السلبي الآني :[16]

و ترى في عمق ممالكنا
وعلى أرصفة الوطن العربي
أعراضا تدمى بلا ثمن
و شعوبا صرعى من الوهن

فهذه الصورة السلبية الدالة على تحولات حضارية خطيرة كفيلة بأن تجعل الشاعر يتوقف ليسأل الأسئلة الآتية: ما مهية هذا الوطن؟ ما علاقة الشاعر به؟ كيف كان وكيف أصبح؟ و تكون الإجابة مؤلمة حين نعلم أن الوطن الإقليمي إنما يعمل هنا ضد الذات، من خلال تأكيده لمنطق القسوة و العذاب :[17]

يا عبد الرحمن
قاس هذا البلد الأقصى
يزرع في أعيننا
أعشاب الحزن القاتل

16 أيام الحصار/ عبد القادر عبار ص /

17 الأحجاب الغوارة / محمد علي الربادي/ ط1 / المطبعة المركزية / وجدة / المغرب/ 1991 / ص87

من هنا يبدأ الاغتراب و تمتد رحلة الحزن و الألم، و تتضاد العلاقة بين الشاعر والوطن ، و من هنا تبدأ قراءتنا لقصيدة الوطن، و للمتغير الحضاري، و هي القراءة التي لا تتم إلا وفق ثلاث مستويات :

المستوى الأول : ضياع الوطن

المستوى الثاني: الا غتراب

المستوى الثالث: البحث عن الوطن، أو المتغير الإيجابي

أما المستوى الأول فيبدو في رصد الشعراء للضياع من خلال انفتاح الذات على الواقع الذي تتحدد هويته و ماهيته في النصوص الشعرية الآتية : ففي دواوين الغماري تتميز قصيدة الوطن بلغة الضياع والتلاشي التي تطغى على النص طغيانا كاملا وتؤسس لدور الإنسان الضائع الذي أوجد صورة هذا الوطن، ومن هنا يختفي الصوت الحماسي الذي ألفناه في قصيدة الوطن التي كتبت أثناء الثورة التحريرية،ويبرز بدله همس الهزيمة المؤيد بالإنسان الفاقد للذات، يتمثل هذا في قول الغماري: [18]

ووطن يباع في انحناءة الجباه للمحتل

في الزمن المختل

في زمن التهريب و التغريب

في الزمن الغريب

إن المكون للوطن هنا هو المعرض للضياع، و المضيع هم مجموعة من الشركاء المتغربين الذين تعاونوا على تدميره، و التدمير لا يقتصر على الوطن الخاص (الجزائر) بل يتسع ليشمل الوطن العقائدي الكبير، فالقدس يطويها الاغتراب، ومصر يلوكها الزيف، و الإنسان المسلم يردد أضحوكة السلام : [19]

18 مقاطع من ديوان الرفض/ مصطفى محمد الغماري/ م . و . للكتاب/ الجزائر/1989 / ص28

19 حديث الشمس و الذاكرة/مصطفى محمد الغماري/م. و للكتاب/ الجزائر/ 1986 / ص14 ، 15

مصر المآذن لاكها زيف وأغواها استـيـلاب

رقصت على وترالسلام وباسمه تعنوالرقاب

باسم السلام تنام في رحم الدروب رؤى غضاب

أما اذا انتقلنا إلى شعراء المغرب الأقصى فإننا نجد قصيدة الوطن و قد اكتملت في نصوص متميزة قد لا نعثر عليهافي الشعر الإسلامي المعاصر. لقد عالج هؤلاء الشـعـراء موضوع الوطن من خلال مفـهـومين هما : الوطن العام و الوطن الخاص .فالوطن العام يتشكل ضمن تجربة الضياع التي تعاني منها الأمة العربية الإسلامية قاطبة، وهي التجربة التي تصير محببة لدى الحكام يمارسونها ليؤيدوا بها الفردية المطلقة، و يلبوا من خلالها رغبات الآخرين، و في خلال ذلك لم يجد الشاعر محمد بنعمارة الا النداء الباكي يرسله في لحظات اخواء الحضاري عله يبلغ شفيعنا محمدا ـ صلى الله عليه و سلم ـ في زمن انعدم فيه الشفيع :[20]

ياسيدي و نبيي

بلادي ممزقة كقميص المحارب

حين يضمد جرحا

وأهلي ـ و أخجل ياسيدي أن أقول ـ

يحاربك الحاكمون

وأهلي طوائف

يقتسمون غنائم هذا الزمان الرماد.

إن منطق الأسطر الماضية يقر حقيقة مدهشة، وهي أن الوطن العام قد تفكك والفاعلون هم زعماء العشائر الذين آثروا الملك ، فصاروا طوائف شتى، فالعلاقة إذن بين الوطن والحاكم علاقة عضوية، وضياع الوطن رهين بضياع الحاكم. و لا نغادر النص دون أن نحدد اهتمام الشاعربالتاريخ، فلكي يكون الضياع أكثر مأساوية لا بد أن ينبع من

20 نشيدالفراء/ محمد بنعمارة/ ط1/ مطبعة النور/ تطوان/ المغرب/ 1401 هـ/ص47 .

الطوائف، والطوائف مدخل تاريخي يؤكد السمة البارزة لحكام الماضي و الحاضرالذين يشكلون وحدة متلاحمة متواصلة، أساسها الضعف، وفقدان الذات، وهدفها إعلان الحرب على كل ما هو إسلامي، وتفكيك كل ماهو توحيدي، ومن هنا يأتي تأكيد الشعراء الإسلاميين على هذه السمة في النصوص القادمة.

و يتطور الضياع ليتحول لدى الشعراء إلى مأساوية ساخرة، يعبرون فيها عن ذل المسلمين الذين تنازلوا عن أرضهم، وسلموها لقمة سائغة للغرب، وفكرة التسليم تعتمد لديهم على منطقية واقعية أساسها ضياع مركز الدائرة الوطنية الذي هو القدس، فمن خلالها يبدو الرصد المباشرلبنية الضياع، وبالتالي لمضمون قصيدة الوطن الإسلامي الكبير، ولا عجب في ذلك، فالقدس هي المقياس الذي تقاس به أزمة المسلمين، يقول مالك بن نبي : « إن قضية فلسطين هي المحور التاريخي الذي أخذ العالم الإسلامي يدور حوله، باحثا عن اتجاه إيجابي جديد . »[21] ومن السهل جدا أن نقرأ هذا المحورفي أشعار حسن الأمراني، ومحمد علي الرباوي، ومحمد بنعمارة، وأم سلمى، يقول محمد علي الرباوي :[22]

وطني مشتعل
يمتد من أرض فلسطين إلى أرض فلسطين
وطني مشتعل
ماعاد أرضا و سماء
وطني أصبح إسما تائها بين ملفات
لها في القلب فرع، وفروع في تخوم الشرق و الغرب

إن مركز الدائرة هنا هي فلسطين التي تشكل النسيج العام لوحدة المسلمين جميعا، غير أن هذا النسيج قد تفكك بفعل الضياع الذي لحق بالأقاليم الإسلامية،

21 وجهة العالم الإسلامي/مالك بن نبي/ترجمة عبد الصبور شاهين/دار الفكر/دمشق/ص119 .
22 البيعة المشتعلة/محمد علي الرباوي/ط1 / المطبعة المركزية/وجدة/ المغرب/1987 /ص21 .

ويفعل التيه الذي صير القضية ركاما تدفن في رفوف الكبار الذين لا يريدون لهذا الوطن أن يلتئم، و للدائرة أن تكتمل، و ينعكس هذا الضياع على الإنسان المسلم الذي يعد الخاسر الأكبر في أقاليم ترفض كل ما من شأنه أن يؤكد على حضور الإسلام : [23]

آه تلك أمي رفضت كل بنيها
تلك أمي
حجبتها السبل الجوفاء عني

فالشاعر يجعل العلاقة بينه و بين الوطن منعدمة انعداما قسريا لاختيار الأول سبيلا، واختيار الثاني سبلا، واذا علمنا أن عنوان القصيدة هو « السبل» فإننا ندرك هذه العلاقة المبنية على التضاد بين الخط العام الذي ترسمه الآية الكريمة « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه و لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» [24] و الذي يلتزم به الشاعر، وبين الخطوط الأخرى، أو السبل الجوفاء التي تلازم الوطن الإسلامي، و التي تحيله إلى وطن تائه بين تخوم الشرق و الغرب. و تصير هذه السبل المؤيدة بالأنظمة العربية مدانة في نظر الشاعرة أم سلمى، لأنها هي التي مهدت لضياع القدس، و ساعدت في التأسيس لكيان يهودي تتوغل أصابعه السامة في عرض الأمة المباح : [25]

وكتبت الوصية بأسرارها الدموية
و أشهد أنهم شطبوا القدس
عن طول الخريطة
ياوطن الأنبياء

23 نفسه/ ص21.
24 الأنعام/ .
25 فصول من موعد الجمر /أم سلمى/ط1 /مطبعة الأمل/تطوان/المغرب/1986 /ص20 .21.

ضاعت الأحلام

و الحقيقة أن هذه الأشعار إنما تؤسس لواقعية تؤكدها الحقيقة التاريخية التي تكشف عن الأمة الإسلامية الممزقة التي تشكل في ظلها وطن جريح ضائع، فهذه الأشعار ماهي إلا ترجمة لهذا التيه الذي جربه المسلمون، و الذي تداعت فيه أوطانهم بسبب المرجعيات اللاواعية المؤدية الى اغتراب الإنسان المسلم بعامة و الشاعر بخاصة، حيث شاهد هذا الأخير انفصاما مروعا بين هوية غائبة يطمح إليها، و أهواء مفروضة تضيعه، ووسط هذا التناقض ووسط هذه المفارقة العجيبة كان الوطن يضيع أما المسلمون فلم يجدوا عزاء إلا في البكاء:[26]

لم نجد غير البكاء

وبكينا

لم يعد شيء إلينا

في سراديب الهزيمة

ونأتي إلى الوطن الخاص لنجد المغرب الأقصى و قد بدا مريضا لا يرتبط بالعزة، ولا يقوى على التحدي، ولا يجتهد في تكوين العلائق الإسلامية التي تفرح الشاعر و تبهجه، و تجعله يحس بالإنتماء الى وطن بشكل الحماية، و الصلابة، والتحدي. ينظر حسن الأمراني إلى وطنه فلا يجد غير علامات الضياع والفناء والتشتت و يبحث عن منقذ فلا يعثر إلا على منهزم خائن، و يحاول أن يتحرك في إطار التاريخ فلا تقابله غير صور الضياع، إنه الضياع في كل آن، في الواقع و في الذاكرة، لقد ضاع الوطن يوم ضاعت غرناطة[27]

يأيها الوطن المبلل بالخياتة

من يفك القيد عنك ؟

---

26 القصائد السبع/حسن الأمراني/ص47.

27 نفسه/ص18،19.

ومن يرد مخالب الروم الضواري؟
ياوطني لأضيع أنت من أعمى
يفتش في دجى غرناطة
عن صاحب يغنيه
أو عن ملجإ يؤويه
ياوطني المسجى في الزنازن

واستنادا إلى منطق النص فإن الشاعرقد استطاع بخصب مخيلته، وقوة استيعابه لدروس التاريخ أن يجتاز الحدود الجغرافية لهذا الوطن الضائع كي ينطلق إلى عوالم أخرى توصله بأخطر محطة للضياع في تاريخ المسلمين، إنها محطة غرناطة، فضياع اليوم اذن ما هو إلا نموذج مصغر لضياع هائل السعة و المسافة، أما عن علامات الضياع فهي شركة بين الأمس واليوم، إنها الخيانة و التفكك و الشقاق و الإستعانة بالروم الضواري على تدمير الإسلام، واستثمار خيرات الوطن في مجال الحرام ، و تعد العلامات السابقة دليلا منطقيا يؤول الوطن من خلاله إلى العقم كحالة نهائية، يقول حسن الأمراني:[28]

وأرض غاب ضوء الشمس عنها
فهي بلقع
زمن الحب بهذه الأرض غيمة
ليس قطر
زمن الحب استحال في بلادي
ألما . . جرحا.

إن هذا الوطن ليس هو المرجو الذي يحيا فيه الشاعر عزيزا،فمكوناته تبدو من خلال لغة الغياب التي يلجأ إليها الشاعرلتأكيد التلاشي و الضياع، فالغياب هو

28 الحزن يزهر مرتين/حسن الأمراني/ط1 /مطبعة النهضة/فاس/المغرب/1974 /ص72 ، 73 .

العامل الوحيد المشترك بين الألفاظ السابقة، وهو المؤكد من خلال غياب ضوء الشمس أو حضارة الإسلام التي هي جوهر الوطن القوي، و يزداد هذا التأكيد حدة مع كل قراءة لجملة من جمل النص، فالأرض بلقع، و الحب غائب، و الغيمة لا تمطر، ولا يبقى بعد ذلك سوى الجرح و الألم.

ومع عنصر الضياع الذي وجدناه في النصوص السابقة، تتولد صور أخرى مكثفة الحضور في قصائد عديدة يكون الحديث عنها من خلال الجمل الشعرية الآتية التي تطغى عند بعض الشعراء لتصير ظاهرة في شعرهم. فعند الأمراني، و في مجموعة شعرية واحدة، يبدو الوطن هكذا : « الوطن يتحول مقبرة . ، البلد المشنوق،، بلاد الجليد . ، البلد الميت . ، البلد المستباح .، البلد المستجير بمن لا يجير، ، الأرض العاقر، ، الأرض مزرعة للمرابين و الكبراء، ، الأرض حديقة للموت، ، الأرض مزرعة للدماء . . . »[29]. و عند الرباوي نجد :«البلد المسروق جهارا ، ، البلد المتجمد ، ، هل في بلدي من يقدر أن يتكلم، ، قاس هذا البلد الأقصى . . . »[30].

وعند محمد المنتصر الريسوني : « أرضي صارت ثكلى ، ، الغربة تقضم جوف بلادي،، بلادي صارت ليلا وحشيا ،،غدا عرق الوطن أغرس،،جرح الوطن يكبر»[31])

إن العلاقة واضحة تماما بين الضياع و هذه الجمل التي تنتصب كصفات مرعبة، تنفتح انفتاحا محزنا على الوطن الذي يصير عاملا مساعدا على الإغتراب انطلاقا من تكوينه، أو من مميزاته الواقعية و منها : الموت و العقم .

و يحتل الموت وما يحمله من مدلولات الحيز الأكبرمن نعوت وصفات الوطن، ويمارس وظيفته بمساعدة العقم من أجل تغييب الإسلام و لواحقه كالوحدة و العزة،

---

29 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص13، 17، 27، 38، . . .

30 الأحجاب الفوارة/محمدعلي الرباوي/ص 53، 79، 80، 87، 94، 95

31 عندما يزف ابن تيمية صبح الولادة/محمدالمنتصرالريسوني/ص24 ، 27 ، 37 ، 38، 40 .

وبالتالي تغييب الشاعر الإسلامي، أو تغريبه و إبعاده عن هذا الوطن. فالموت يمارس سلطة الشنق على الحرية، و يمارس سلطة العقم على الولادة، و يمارس سلطة الإبعاد على القرآن، و يمارس سلطة الاغتراب على الشاعر. فالموت اذن هو بداية الوصول إلى النهاية، وما الصور الآتية إلا دليل على ذلك «البلد المستباح، البلد الميت، بلادي ممزقة». وانطلاقا من هذه الصور يتضح لنا أن الموت إنما ينفتح على الذات الإسلامية الضائعة التي تنفتح بدورها على وطن ضائع، و ينفتح هذا الإنفتاح على أسئلة أخرى:لماذا ضاع هذا الوطن ؟ ما هي تجليات الضياع؟ و يمكن أن يكون الجواب بقول الأمراني الآتي:[32]

و نحن

نحن أموات

حيارى نستجير بهذه الصحراء

من الرمضاء

بلا زاد و لا ماء ولا أفياء

نطوف في العراء بغير ما أكفان.

فالضياع اذن متمحور حول الذات المعطلة التي فقدت الفعل الذي لا يمكن أن يكون فاعلا الا اذا ارتبط بكتاب الله و بوجدانيات الإسلام في جميع مستوياتها، ومادام الأمر كذلك فلتكن النهاية التي تحيل كل ما في الوطن إلى الموت و دلالاته واشتقاقاته. فالحاكم يمارس التعذيب و القتل، والوطن يظمئ ، و يجوع، و يغرب، و القاضي يسجن و يظلم :[33]

كانت كل علامات الدرب تقول له

قف . . قف

32 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص75 .

33 نفسه/ص121 .

اللاقتة الحمراء: قـف

مقصلة الجلاد : قـف

أمراس الشنق

أيادي الخنق جميعا : قـف

جميع علامات الدنيا تهتف أن : قـف

و يبدو الحاكم كأكبر ممارس لسلطة الغياب و الفناء، فهو المغيب للإسلام، و هو المضيع للوطن ، و يكون بالتالي هو المدان، نجد ذلك مثلا عند الأمراني الذي ينتقل بالقارئ من ديوان إلى آخر عبر محطات الوطن الإسلامي الكبيرالذي يسكنه إنسان قزم صغير، ثنائية مؤلمة يزاوج فيها الأمراني بين أقاليم ضائعة، و حكام غارقين في نفطهم، وفي قحطهم، و جبروتهم ، و بين الثنائيتين يضيع الوطن :[34]

هكذا أيها المدجج بالحق

تصبح أرض المساكين مزرعة للمرابين و الكبراء

و يصبح ياصاحبي العهر من زينة الأرض

و القهر من سنة الحاكمين

حين أسلمك المرجفون إلى غيهب السجن.

و أخيرا فإن هذا المستوى الأول من الحديث عن الوطن إنما يجسد عددا من الصور التي تفرز الحالة الضائعة للوطن العربي الإسلامي الذي استسلم لعالم المادة، و خضع لمكونات غريبة عن الحضارة العربية الإسلامية .

المستوى الثاني : الاغتراب

إن هذا المستوى يتحدد في إطار مفهوم خاص لعلاقة الشاعر بالوطن ، فالشعراء الإسلاميون لم يهجروا الوطن، و لم يتنكروا له، فارتباطهم به حتمي،

34 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص66 .

والتخلي عنه مستحيل، لكن المشكلة أن يتخلى الوطن عن هؤلاء الشعراء، و أن يشردهم و يجعلهم سقط متاع، و يحشرهم في زمر المنبوذين فهنا يصير الإنتماء مفقودا، و يحل محله الاغتراب، و البعد الممارس عنوة.

هذا هو الجديد الذي نقرأه في قصيدة الوطن و هو جديد مأساوي، لأنه يتعلق بشاعر ودود مخلص فرض عليه أن يتنازل عن وده و إخلاصه، إن الوطن هنا - بما فيه من مؤسسات و أعراف و معارف - هو الذي فرض الاغتراب على الشاعر فرضا، فالجزائر حلم الغماري و فواصله التي لا ينتشي إلا بها ، لكنها تسقط صريعة في يد الجاني الذي يفرض عليه الاغتراب :[35]

جزائرالحاضرالمعطارفاصلـــــتي ظمأي وحرفي كما تهوى يد الجاني
جفت على شفة النسيان واحترقت وانشل في الآهة السوداء وجدانـــي
وكم ترقبت لاهدب يطمئننـــــي فيمطر الوصل في صحراء نسيـــان
أني تلفت يدميني صقيع أســـى كالطهر يدمي اغترابا بين أو ثـــان

إن هذه الأبيات تعد فاتحة لنصوص حملتها القصيدة الإسلامية المغاربية، وفيها هذه العلاقة الضدية بين الشاعر و الوطن، تلك العلاقة التي شغلت الشعراء الإسلاميين باعتبارهم أكثر الناس اغترابا و تشردا ، فهم في كل قائمة موت تأتي، وهم في كل سجن يفتح، يقول حسن الأمراني :[36]

شردتك البلاد الحبيبة
واحتضنتك المنافي
أيها العاشق المتغرب في الذات
أو في البلاد العريضة
قد شردتك الحروف

35 قصائد مجاهدة/مصطفى محمد الغماري/ش.و.ن.ت/الجزائر/1982 /ص99 . 100

36 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص65 .

و أسلمك الأهل لليل

غربك العشق واحتضنتك السجون .

إننا هنا أمام قطيعة شبه كاملة فرضها هذا الوطن على الشاعر، و تستمرهذه القطيعة مع كل تكوين لغوي نقرأه في النص، فالعبارة « شردتك البلاد الحبيبة» تدخل في لغة البعد عن طريق الفعل الممارس من قبل الوطن، و هو الفعل الموصل إلى الاغتراب و الإقصاء للشاعرالإسلامي المحب لوطنه، و يتنامى هذا الإقصاء ويتخذ له شكلا دراميا حين تأتي الأسطر الآتية :[37]

ولي وطن

يجوعني فأطعمه شرايييني

و يظمئني فأسقيه دمي المخبوءفي ليل المساكين

إن هذه الأسطر تعكس - دون شك - صورة مؤثرة لكل مغترب حاربه وطنه، وهي صورة جديدة غير مألوفة في شعر الاغتراب المعاصر، إذ يعمد فيها الأمراني إلى صورأكثرحزنا و أشد تأثيرا، فيرينا لوحتين متناقضتين إحداهما لوطن يمارس العنف والرفض، و أخرى لشاعر يمارس الحب و الإنتماء. إن هذه اللوحات الضدية تصير في الأخيرسمة خاصة بشعر الأمراني الذي يفجرها صورا مفزعة، يمارسها الوطن ضدالشاعر، بل و ضد الشعب بأكمله الذي سرعان ما تنكرله الوطن بعد الإستقلال ليؤسس لأبعاد فردية مستبدة وغامضة من خلال غموض الحاكمين الذين يبدون شيئا من الوفاء ليخفوا حقيقة مكرهم :[38]

يا أيها البلد المستبد بقلبي

و قلبي قد أثخنته الجراح

كيف تصبح مزرعة الأبقين

---

37 نفسه/ ص70.

38 نفسه/ص91، 92.

و تعطي جواز مرور إلى عربات الضياء
لمن هب أو دب يا وطني!
و بنوك على شاطئ البحر كالغرباء
كيف ياوطني !

و ضدية الأمراني هذه توصله في الأخير إلى علاقة الإنقطاع التي تكشف عن التشكيك في قيمة هذا الوطن، و ليس ذلك فحسب، بل الإحالة الى سؤال خطير وهو: هل ترقى هذه المتفرقات الممتدة من المحيط الى الخليج و المؤيدة بالنفط و القهر إلى أن تصبح وطنا عربيا إسلاميا ؟ و السؤال مشروع اذا علمنا طغيان المادية المبذولة في هذه الأقاليم لإفناء الإسلامية بخاصة :[39]

في جنة تمتد - فيما يزعمون -
من المحيط إلى الخليج
هي جنة تجري بأنهار من البترول
و القهر المصفى
هل أنت لي وطن - كما زعموا-
أم أنك لي غدوت اليوم منفى ؟ !

وكان على الشاعر بعد هذا السؤال أن يختار الاغتراب ، و أن يلج عالم المنفى كما ولجه عشرات المسلمين الأباة الرافضين للذل و الإستكانة، ففي هذا الولوج زمن النصر، وفيه الخلاص من وطن غدا سجنا، واختيار المنفى هنا اختيار صحي لأنه يعني البحث عن إنهاء الاغتراب من خلال الإسلامية المؤيدة بالسيف :

وسألت صاحبي الذي يرتاد من منفى
إلى منفى :
بأية تهمة قادوك ؟

39 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص138 .

أغضي صاحبي
أغضي قليلا وابتسم
ثم ارتحل
وارتفعت كفي
واستوت سبابتي
سيفا فعانقت الوصية

إن صورة هذه العلاقة بين الأمراني ووطنه إنما تستحضر عشرات الصور للشعراء الإسلاميين الذين حاولوا أن يمارسوا حب الوطن، فرفضهم لأنه رفض البنية الإسلامية و ركن إلى الضياع، و من هنا جاءت النصوص مبنية على لغة الإقصاء المؤدية إلى الاغتراب الذي هو المحصلة النهائية لعلاقة الشاعربالوطن، وربما كانت قصيدة «الغربة» للرباوي دليلا طيبا لاختصار هذه العلاقة، إذ استطاع الشاعر من خلالها أن يبين ذلك التضاد الحاد الذي يلغي التلاؤم بينه و بين وطنه إلغاء يصل إلى حد القطيعة:[40]

في الشارع أنت غريب
في الدرب غريب
وغريب في المعمل، في المتجر
في مقعدك المألوف وأنت هنا
تسمع أو تقرأ هذي الأشعار
غريب في البيت وأنت تجالس
شاشتك الفاجرة الصوت ، الفاسقة الصورة .

ولا نمضي دون أن نذكر أن الشاعر الإسلامي، إنما فرض عليه الاغتراب فرضا، فما كان عليه أن يتخذ موقفا مغايرا من الوطن لولا تلك الأساليب الخطيرة التي قضت

40 البيعة المشتعلة/محمدعلي الرباوي/ص30 .

على سبل الحياة في ظل وطن لايرومها إلا خارج الإسلامية، هذا الوطن الذي انهارت أسسه وتغيرت ملامحه، وتلاشت علامات القوة و العزة فيه، فصار يمارس القهر ضد الشاعرو يفرض عليه الاغتراب، و من شأن هذا الفعل أن يزيح الشاعر الذي يتمناه الحكام و الكبراء أن يكون مغتربا بعيدا عن الوطن، راحلا في عالم المجهول «لأن أية وقفة هنا أو هناك قد تمنحه القدرة على تسديد الضربات للطاغوت،وإسقاط المفتاح من يد السجان، والإنطلاق لصياغة المصير المرتجى»[41]

المستـــــوى الثـــالث : البحث عن الوطـن

إن إيجابية الإغتراب لا تترك الشاعر الإسلامي يتيه، أو يضيع في ظل ضياع الوطن، كلا و لكنه الشاعر المؤمن الذي لا يفقد الرجاء، ولا يغـــترب اغـتراب الرومانسيين الفارين من جحيم الواقع إلى مثالية الطبيعة، بل يبحث عن وطن إسلامي بديل يستأنف من خلاله حياة العزة :[42]

جميع علامات الدنيا تهتف أن : قف !

لكن الشخص المشنوق يقرر

أن يستأنف !

أن يستأنف !

و الإستئناف يعني إيجابية الإغتراب، فالشاعر لا يعتزل وإنما يحاول أن يقدم تفسيرا لواقع أكثر نضارة و إشراقا، فهو في الحقيقة شاعرذو رؤية حضارية متميزة يحاول أن يؤثر في التاريخ، ولكن الإستئناف لا يكون إلا بالإسلام :[43]

فيا غرباء هلموا إليا

41 نماذج من إسلامية الأدب بالمغرب/د. عماد الدين خليل/المشكاة/ع10/س3/ وجدة/المغرب/ شوال/1409 هـ/ص56.

42 الزمان الجديد/ حسن الأمراني/ص121 .

43 نفسه/ ص106 .

سنفتح هذا الزمان العصيا

بأمر الذي قال : كن فيكـون

و من خلال هذا الإستئناف أو البحث عن الوطن تنبع خاصيـة أساسيـة للنص الشعري، وهي أنه نص مفعم بالحياة المستقبلية، متطلع دائما إلى انكشاف ليل الأسى عن فجروشيك منير، ذلك لأن المنهج الذي يستمدمنه الشاعر فكره وتصوراته «يوطن على توقع و تجاوز واحتساب كل ما يلاقيه من عناء و بلاء، ولا يسوغ من تحت وطأة سوط ظالم، أو وخز سخرية فارغة، أو نخس ضحكة مترفة أن ينزوي في كهوف العدمية الرطبة، أو يبحر عبر مستنقعات الكآبة و اليأس الكدرة .»[44]

و البحث عن الوطن الآتي ينمو و يكبرحتى يصيرقضية كبرى تشكل الهاجس الذي يحرك شاعرية الأمراني بخاصة، هذا الشاعر الغني بتجارب و خبرات هائلة ، تضاف إليها ثقافته الواسعة ورحلاته المستمرة فى أرجاء الوطن الإسلامي الكبير، كل ذلك يجعل منه شاعراباحثا عن نموذج أفضل، غيرأن الأهم في بحثه هذا أنه لا سبيل لهذا الوطن إلا بالسيف و الكتاب، لأن الاغتراب عنده إنما يجسده غياب العزة، و غياب العلم، و غياب العدل:[45]

الآن أقول لكم :

يا حراس الأرض العربية

يافرسان الحلبة يا حكماء

انتفضوا أو لا تنتفضوا

بلدي هذا مسكون بالحلم

وغدا ستلاحقكم لعنات الأبناء

فيا شلالات الدم

44 الحياة في الشعرالإسلامي المعاصر/محمد رشدي عبيد/المشكاة/ع12 /ص37 .

45 الزمان الجديد/حسن الأمراني/ص112 ، 113 .

أعيدي نسج التاريخ
و تكوين الأشياء
و ياشهداء الفقر
أفيضوا من حيث أفاض الشهداء

وغير بعيد عن هذه الرؤية ما نجده عند الشاعرة أم سلمى التي يحركها الهاجس نفسه، فإذا كان الوطن لدى الأمراني لا يأتي إلا بالسيف والكتاب، فإنه كذلك لديها:[46]

باسم بدر باسم خيبر
سيشتعل الوطن النائم
بالمواويل العاشقة

و قد يتحول البحث عن وطن الإسلام إلى داء الحنين «NOSTOMANYA»[47] الذي يملك على الإنسان المغترب كل مشاعره وأحاسيسه، ولا يعرف قيمة هذا الوطن إلا من حرم منه و تغرب عنه، وبقدر ما يمتد الاغتراب يزداد لهيب الشوق:[48]

خبي أيتها القصواء
خبي بالله عليك
لعل جناحك يبلغني بلدا
يتموج أهلوه بضياء.

إن هذا الحنين هو المحرك الفاعل الذي جعل الاغتراب واعيا ، فالحنين هو نبض قصيدة الاغتراب، وهو المثير في تصور الزمن الآتي، وهو الباعث على السرور و البهجة و الفرح، لأنه يجسد لحظة أمل يعيشها الشاعر في ساعة من ليل أونهار.

46 فصول من موعد الجمر/أم سلمى/ص59 .

47 موسوعة علم النفس والتحليل النفسي/د.عبد المنعم الحفني/ج2 /مكتبة مدبولي/القاهرة /1978/ص34

48 مملكة الرماد/حسن الأمراني/المطبعة المركزية/وجدة/المغرب/1987/ص69 .

فالحنين إ ذن دواء ناجع لكل المغتربين، فأينما وجدت غريبا قابلك حنينه :[49]

غدا ننا جي الهوى في الدرب ياوطني ومن ضياء الهدى أستل برهانـــي

ومن تسابيح قرآني ومعجزتـــي أشاهد الله في ر احي و ر يحاتـي

وفي هذا الوطن الآتي وحده تزهو النفس و تفرح و تمرح، ففيه عرجون الخلاص من وطن ردي، و حاضر سيء ، وهناك تطرب الشاعرة أم سلمى وتغني :[50]

أنا زهرة الله في الكون

أفوح طهرا و نقاء ، بفضل الآيات البينات

وتمطر عيني شلالات الدموع

تغسل عن قلبي صدأ الأدران

وينتفض محمد بين جوانبي

و يحيا على مر الزمان

و خلاصة قصيدة الوطن أنها قد نجحت على أيدي الشعراء الإسلاميين المعاصرين في التعبيرعن هم الإنسان المسلم الذي يرجوأن يشكل مطامحه و أحلامه وفق الإسلام، ووفق وطن عزيز، كما أنها قد خرجت بالوطن من تلك التعابير الرومانسية الحالمة التي شهدها الشعر العربي المعاصرلفترة طويلة من الوقت، والتي حولت الوطن إلى موضوع للغناء و الطرب، و أوقفت الإنسان المسلم على حقيقة مدهشة، وهي أن الوطن المادي الجغرافي لا خير فيه إذا لم يعانقه وطن روحي، ولذا نرى الشعراء وهم يقفون ضد هذه الأقاليم الممزقة بصراحة عارية تماماويتحد واضح، وفي الوقت نفسه يطمحون إلى وطن إسلامي كبير، وقد ألحت عليهم هذه القضية إلحاحا كبيرا لأنها آخر الأمر قضيتهم الشخصية .

---

49 أسرار الغربة/الغماري/ص29

50 لعبة اللا نهاية/ص 21